

المنهج والخصوصية الحضارية: إشكالية قراءة التراث الشعري عند مصطفى ناصف

رشيد بلعيفة

قسم اللغة والأدب العربي- المركز الجامعي عباس لغرور - خنشلة

(1) استهلال :

تعتبر إشكالية المنهج النقدي من أهم الإشكاليات المعرفية ، إن لم تكن أهمها ، ذلك أن المنهج هو المفتاح الإجرائي الذي بوساطته تفتح مغاليق النصوص ، و تنزع أردية التدثر عن المعاني المكتنزة داخل هذه النصوص ، و تتوقف فاعلية الإجراءات النقدية على حسن توظيفها و تمثيلها ، و حسن استثمارها من قبل الباحث أو الناقد ، الأمر الذي تنسحب عنه نتائج تكون قيمته بالاحتفاء والتبجيل ، و تجعل من النص الأدبي كنزا مشعا بمختلف الدلالات و المعاني . إلا أن المعضلة الحقيقية التي وقع فيها النقد العربي الحديث ، هي مدى الاستفادة من مناهج البحث الغربية ، التي تم استقبالها في بيئة النقد العربي ، و في كثير من الأحيان يتم الخلط بين التطبيق الآلي الصنمي لآليات المناهج و بين سوء توظيفها و سوء ترجمة مصطلحاتها ، مما يجعلها آليات هدم بعدما كانت في الأساس آليات بناء ، و في الوقت نفسه عدم المعرفة بالخلفيات المعرفية و المرجعيات الفلسفية التي صاغت هذه المناهج ، باعتبار أن " المنهج طريقة في التعامل مع الظاهرة موضوع الدراسة ، تعتمد على أسس نظرية ذات أبعاد فلسفية وأيديولوجية بالضرورة ، و تملك - هذه الطريقة - أدوات إجرائية دقيقة و متوافقة مع الأسس النظرية المذكورة و قادرة على تحقيق الهدف من الدراسة" ¹ .

ترتبا على هذا ، وقع الكثير من نقادنا المحدثين ضحية الانبهار و التسرع في استثمار الوافد من الثقافة الغربية ، انطلاقا من مقولة المغلوب مولع بتقليد الغالب ، فلم يحسن النقاد العرب المحدثين في كثير من الأحيان التعامل مع هذا الوافد ، و لا الوعي بهذه المرجعيات الفلسفية التي تقبع وراء كل منهج أدبي أو نقدي ، إنما تم التعامل معها و كأنها مسلمت مشاعة بين كل الأجناس ، و في كل الحضارات ، و إمعانا في إظهار مدى الخطورة المعرفية على الذات من قبل الآخر ومحاولة منها لكشف ملامسات الإستقبال والتمثل ، تسعى هذه المحاضرة إلى التعريف بعلم من أعلام نقدنا الحديث و المعاصر ، بغية إضاءة مشروعه النقدي ، الذي خص فيه مدونات الشعر الجاهلي بالدراسة و المساءلة قصد الوصول بالعملية القرائية إلى آماذ بعيدة من الفهم و التفسير . فهل كان هدف مصطفى ناصف من هذه القراءات هو الوقوف عند الدلالة الأولى (الحافة) لهذه المتون ؟ أم أن الرجل يروم تجاوز هذه الدلالات إلى معاني تنأى عن الحصر و تتجه إلى مغايرة الطرح ومغايرة النتائج؟ و ماهي الآليات القرائية المعتمدة من قبل ناصف في عملية الحفر و الاستنطاق؟ و كيف كانت عملية التناول و المعاينة و توظيف هذه الآليات ؟ و هل الجهاز المفهومي و المصطلحي المتوسل به من قبل الناقد كفيل بإضاءة هذه النصوص ؟ أم أنه قاصر و متهافت و هزيل ؟

تسعى هذه المحاضرة للإجابة عن هذه التساؤلات و غيرها ، محاولة التعرض لكل العملية النقدية التي صاغها عقل الرجل ، و إمكانية تتبع هذه التجربة النقدية التي خلفها ناصف .

¹ سيد البحراوي : البحث عن المنهج في النقد العربي الحديث ، دار شرقيات للنشر و التوزيع ، القاهرة ، ط 1 ، 1993 . ص : 09 .

(2) المنهج والخصوصية الحضارية :

ترتكز كل عملية قراءة - تهدف الوصول إلى سبر كنه النص ، وفك شفراته وفتح مغاليقه ، و نزع أستار الحجب عن المعنى - على منهج نقدي معين ، ترتاد به هذه المتون و تحاول مستعينة به تفكيك البنى اللغوية الكبرى ، و الوصول إلى دلالات تقع في العمق من العملية الإبداعية ، و لا مناص لأي باحث من الاحتكام لآليات منهج معين ، بغية الوصول إلى كشف الحقيقة/المعنى/الظاهرة المنطوية في شكل نص أو إبداع و المنهج بهذا الطرح "يتعدد بتعدد أنماط المعرفة ، و أنه يلحق بها و لا يسبقها ، و أنه تبعاً لذلك معرض للتطور و التجدد و النسبية في كل ذلك ، و أنه بهذا لا يقبل الوصف بالشمولية و الإطلاق ، و لا يحتمل أن يفرض أو يعمم أو يلصق بأي مجال معرفي - كيفما كان - ينقل إليه أو يُتبنى فيه" ¹.

تأسيساً على هذا ، لا يعتبر المنهج منبت الصلة بالحضارة الفلسفية الحاملة له ، و لا يمكن عزله عن الحقل المعرفي الذي أنتج فيه ، و لا عن خلفياته الفكرية و مرجعياته الفلسفية التي عملت على بلورته و نضجه ، إذ "يمكن النظر في علم المناهج بصفته نظرية عامة شاملة للمناهج المفردة ، أي المناهج الموظفة و المستثمرة في مختلف العلوم ، و حقول المعرفة ... و ترتيباً على ذلك يفرض البحث في المنهج إلى مجال فلسفة العلوم أو نظرية المعرفة أو ما يمكن تسميته اختصاراً : الإبيستمولوجيا ، و هو ما يتولد عنه خطاب نظري من درجة ثانية يصطلح عليه بالخطاب النظري الواصف أو ما بعد النظري" ².

إنّ محاولة تأصيل مناهج البحث و الدراسة الأدبية هي ما يرومه عدد غير قليل من نقادنا المحدثين ، و عملية التأصيل في حقيقتها هي البحث عن أصل لهذه المناهج في التراث النقدي و البلاغي العربي ، على اعتبار أن الموروث النقدي حافل بالكثير من اصطلاحات العلوم و الفنون ، غير أن الأمر لا يمكن التسليم به بهذه البساطة ، فالكثير من القضايا النقدية الحديثة و المعاصرة لم تجد ما يماثلها على الصعيد الفكري و الفلسفي تراثياً ، و الكثير من المقولات البلاغية و النقدية القديمة أثبتت عمقها ، و عدم جدواها على الساحة النقدية المعاصرة ، ما أدى إلى التوجه رأساً صوب الحضارة الغربية في محاولة لاستثمارها و الإفادة منها ، يقول محمد برادة : "معظم نقادنا منذ حسين المرصفي قد اتجهوا صوب المستودع الأدبي الأوربي (= الغربي) ، بحثاً عن أدوات التحليل و التفسير ، حتى عندما حاولوا إعادة تقييم روائع التراث العربي ، و هذا ما ترك في نفوسنا الانطباع عند قراءة العقاد و المازني و طه حسين و هيكل ... بأنهم يجهدون في إبراز قيمة التراث عن طريق إظهار إمكانية تطبيق المناهج الغربية على جوانبه الهامة ، حتى لا يكون مختلفاً في شيء عن التراث الأدبية للأمام المتقدمة" ³.

¹ عباس الجارري : خطاب المنهج ، منشورات النادي الجارري 8 ، ط 2 ، 1995 ، ص : 14.

² عبد الجليل بن محمد الأزدي : أسئلة المنهج في النقد العربي الحديث ، المديرية الجهوية لوزارة الثقافة ، مراكش ، ط 1 ، 2009 ، ص : 62.

³ محمد برادة : محمد مندور و تنظير النقد الأدبي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، بيروت ، 1985 ، ص : 05.

و استتبعها لما تمّ تقديمه حول العلاقة بين النقد العربي الحديث و النقد الغربي ، و ما نجم عن عمليات المثاقفة التي لا غنى للنقد العربي عنها ، و عمليات التلاقح التي تمت بين التيارين العربي و الغربي ، فما من شكّ في أنّ هذه العلاقة منذ مرحلة البدايات ، أو بداية الاتصال بالثقافة الغربية كانت علاقة الأستاذ بالتلميذ ، أو التابع بالمتبوع ، و الإقرار بذلك يدخل في صميم العملية النقدية و الحضارية التي من شأنها أن تدفع بالتيارات النقدية و الأدبية إلى مزيد من التقدم على الصعيد المعرفي ، و لا نغالي في الاعتراف بأن مرحلة النقل و الاستنساخ و الإسقاط مثلت مرحلة قائمة في تاريخ النقد العربي الحديث ، ذلك أن كثيرا من النقاد العرب سار في اتجاه الأخذ من الغرب دون وعي بمختلف المرجعيات و الخلفيات التي تحتكم إليها هذه المناهج ، إنما حصلت عملية تدافع نحو المنتج الغربي ، و محاولة محاكاته باعتباره المثال و النموذج و المركز ، يقول نبيل سليمان مبرزا عملية التدافع الحاصلة لاستثمار الوافد الغربي ، فالناقد العربي " يستورد من الآخر ما هو جاهز استيرادا شرعيا أو تهريبا يحاول التوليف مع مقتضيات الواقع الفكري و النقدي و الأدبي ، تتصاغر ذاته أمام الآخر الكلي ذي الجاذبية و التفوق" ¹.

إلا أنّ تلك المنجزات الغربية على صعيد النظرية و المنهج و الإجراء و الرؤية ، تجعل من عملية الأخذ و التمثل حقا لا بدّ من استثماره ، و محاولة مزجه بما للذات العربية من أصول تراثية ، بغية الخروج من العملية النقدية بطائل ، فعملية التثاقف و التلاقح هي من يعرف الذات على مثالها و محامدها ، يقول فؤاد أبو منصور بشيء من الأريحية و اليقين : " الغرب مرآة تساعدنا على رؤية أنفسنا في السلم الحضاري ، و تحدد لنا على أية درجة نقف ، و كيف سننوجه ، و أية أدوات نستعمل لاستكمال مشروع المعاصرة" ².

و الواقع أن العلاقة مع الآخر الغربي على صعيد إنتاج المعرفة إنما تجد مسارها الصحيح عند بعض النقاد فيما سمي بـ"المقارنة" ، أي مقارنة منجزات الغربي بما لدى الذات على الصعيد التراثي ، عندما تنكفئ هذه الذات إلى ماضيها علّها تجد فيه ما يثبت حضورها على الصعيد المعرفي في مجابهة هذا الآخر الغربي الذي أعطى لنفسه مركزية تامة ، و رمى غيره إلى مدارات الهامش ، و الحال أن عملية المقارنة في مثل هذه الأمور لا تستقيم أبدا ، نظرا لحجم الفوارق و التباينات الحاصلة على عدد غير يسير من الحقول المعرفية ، إلا إذا رمنا التبسيط و الاختزال و التجديف ، فإننا نقرّ بمثل هذه المقاربات ، " إنّ الاخرراط تحت لواء المقارنة لمراقبة التأثيرات و التأثيرات ، و ضبط درجات تمثل النقاد العرب للمناهج الغربية ، لم ينتج سوى مجموعة من المقاييس الشكلية المجردة التي تحاكم الممارسات النقدية العربية بمنطق "أستاذي" ، يوزع بأقسط غير متساوية نياشين الفهم و علامات التمثل وفق معيار الاقتراب من / الابتعاد عن المثال النموذج" ³.

¹ نبيل سليمان : مساهمة في نقد النقد الأدبي ، دار الطليعة للنشر ، بيروت ، ط1 ، 1983 ، ص : 48.

² فؤاد أبو منصور : النقد البنيوي الحديث بين أوروبا و لبنان - نصوص - جماليات - تطلمات ، دار الجيل بيروت ، ط1 ، 1985 ، ص : 22.

³ عبد الجليل بن محمد الأزدي : أسئلة المنهج في النقد العربي الحديث ، ص : 82.

إن عملية الاحتذاء والمقايسة هي التي أسهمت في وقت ما في صياغة متطلبات المرحلة النقدية العربية، وعجلت في ذات الوقت بإصدار عدد لا بأس به من المدونات النقدية راعى فيها أصحابها تلك الخصوصية الذاتية التي بلا شك تختلف عن المظان الأم لتلك الأعمال. وانطلاقاً من هذا، بات الناقد العربي مسهماً ولو بالقسط اليسير في صياغة الوعي النقدي للذات العربية، ومساهماً كذلك في بلورة العديد من وجهات النظر الخاصة به وبمشاريعه النقدية. يقول الناقد توفيق الزيدي: "ظاهرة التصرف في المناهج واضحة، فلا نجد اتباعاً كلياً لتلك المناهج، وإنما استلهم نقادنا مبادئها العامة كوجوب استنطاق النص، والانطلاق من مبناه للوصول إلى معناه، أو تفكيك النص ثم تركيبه، أو استغلال جهاز التواصل بوظائفه الست... ولعل هذه الظاهرة تجعل نقدنا اللساني يتسم بالسطحية"¹.

و دون موارد، اتسمت المرحلة النقدية العربية الحديث بنوع من الاستلاب، مارسه الخطاب الغربي على الذات العربية، واقتحمها مفككا أسسها الإيديولوجية والمعرفية، معرضاً هذه الذات لنوع من التشظي الذي أسهم فيما بعد في اغتراب الذات عن هموم عصرها ومجتمعها، ودون وعي منها بمخاطرة الأزمة تلاشت مقومات هذه الذات وأصبحت معول هدم لانتمائها الحضاري الذي كان بالإمكان أن تكون لبنة بناء في صرح هذا المجتمع، ودون أن نلقي باللائمة على الحضارة الغربية وإفرازاتها يجب أن نقف موقف نقد لهذه الذات، وكيف استلهمت هذه الحضارة، وكيف نمت في أحضانها، وكيف أقصت كل اعتبار حضاري للخصوصية العربية؟.

يكتب إدوارد سعيد معلقاً على مثل هذا النقد أو الجدل الذاتي قائلاً: "يساورني الانطباع بأننا في العالم العربي نقوم بالنسخ المباشر، ما إن يقرأ الواحد منا كتاباً من تأليف فوكو أو غرامشي حتى يرغب في التحول إلى غرامشاوي أو فوكوي، لا توجد محاولة لتحويل تلك الأفكار إلى شيء ذي صلة بالعالم العربي، نحن ما نزال تحت تأثير الغرب من موقع اعتبرته على الدوام دونياً وتلميذياً، تأمل العدد الكبير من الأفراد في شمال إفريقيا في المستعمرات الفرنسية السابقة ممن يكتبون وكأنهم تلاميذ فوكو أو ديريدا أو تودوروف، إنها نوع من فنتازيا التكرار التي أجدها مضحكة في معظم الحالات، والقسط الأهم راجع في نظري، وهذا مجرد انطباع، إلى فهم ناقص لحقيقة الغرب، أعتقد أننا لم نزل قسطاً بعد من سيرورة التنوير والتحرير بالمعنى الفكري، وأعتقد أن اللوم يقع على المثقفين، إذ ليس بوسعنا أن ننحو باللائمة على الامبريالية والصهيونية"².

انطلاقاً من هذا الطرح في إبراز معضلة التلقي العربي لمناهج النقد الغربية، واستثماراً لآليات هذه المناهج في عمليات النبش عن أصول التراث الشعري العربي، تسعى هذه المحاضرة لمحاولة التعرف على

¹ توفيق الزيدي: أثر اللسانيات في النقد العربي الحديث من خلال بعض نماذجه، الدار العربية للكتاب، تونس، ليبيا، ط1، 1984، ص: 157.

² ميري محمود: أسئلة النقد العربي الحديث، مجلة علامات، ع7، 1997، ص 125، نقلاً عن: عبد الجليل بن محمد الأسدي: أسئلة المنهج،

جامعة قاصري مبراح - ورقة - (الملتقى الوطني للدراسات والبحوث في دراسة اللغة والأدب يوم 26-27 أكتوبر 2011

الإجراءات القرائية المعتمدة من قبل الدكتور مصطفى ناصف، وإبراز مدى فاعليتها في عملية القراءة والحفر، وتحسس مفاصل التواشج والتظام التي حفلت بها هذه القراءة، والنتائج التي توصلت إليها. فالموروث الشعري الجاهلي يمثل مرحلة البدايات بالنسبة للشعر العربي على مرّ العصور، وهو النموذج الأعلى الذي احتذى كلّ الشعراء حذو سابقهم في نظم القصيد، لأنّ البنية العقلية للإنسان الجاهلي عامة، والشاعر بالخصوص، إنما تشكلت في بيت الشعر، وكانت بمثابة مرحلة الطفولة بالنسبة للشعر العربي كافة، غير أن هذا الموروث الحضاري لم يدرس ويقرأ على الطريقة النقدية المثلى، إنما كانت جلّ الدراسات التي انبرت له سطحية لا عمق فيها، وتعتمد في جملة ما تعتمد على الملاحظة العابرة، والتفسير اللغوي الذي يقف عند حدود الجملة لقياس الشاهد وتفسير الوحدات اللغوية تفسيراً لا حركية فيه، الأمر الذي حداً بجملة من النقاد المحدثين إلى إعادة قراءة هذا الموروث قراءة واعية هادفة إلى سبر أغواره، وفكّ شفراته، واستخراج مكنونه، وإنطاقه بما سكتت عنه مدونات النقد العربي القديم، "و من أسباب دعوة هؤلاء النقاد إلى إعادة قراءة الشعر الجاهلي هو قصور النقد القديم عن درسه، وكأن إحساس النقاد القدامى لصفاء هذا الشعر ونقائه، وبعد قائله عن المؤثرات الوافدة هو الذي صرفهم عن دخول عوالمه وحال بينهم وبين فتح مغاليقه، فظلت القصيدة القديمة مجهولة، أو شبه مجهولة، لم تسلم جميع أسرارها ولم تكشف عن كل ذخايرها الشعورية والبيانية"¹.

انطلاقاً مما تمّ طرحه، تركز قراءة مصطفى ناصف للتراث الشعري الجاهلي من دافع النزوع نحو القراءة المثلى لمختلف المتون الشعرية، بغية الوقوف عند الدلالات الثانية التي بقيت عصية في الفهم على الكثير من النقاد والباحثين، الذين اكتفى بعضهم بالدلالات الظاهرة على مستوى البنيات السطحية للخطابات الشعرية، متغافلين عن إبراز مناطق الفراغ ومساحات المسكوت عنه في هذه الخطابات، ويرجع ذلك ربما إلى قصور في أدوات التحليل وآلياته، أو اكتفاء بما تمّ التوصل إليه من نتائج سالفة جعلت من مرحلة التجاوز أمراً عصياً على ذلك، فانبرى مصطفى ناصف من خلال قراءاته منقبا ومحلّلا ومفسّراً ومؤوّلاً لمختلف الظواهر التي شكّلت العمود الفقري لمختلف الخطابات الشعرية القديمة بهدف إعادة بعث الماضي في الحاضر، منطلقاً من فرضية أساسية تنص على أنّ الأدب العربي قبل الإسلام لم يقرأ قراءة حسنة، كما أثبت ذلك "طه حسين" في غير موضع من أعماله.

ولعل من الأسباب التي تقف وراء هذه القراءة القاصرة هو جملة موانع نفسية وعقلية حالت بيننا وبين عملية الفهم السليم لشتى المظاهر والظواهر الأدبية، ولعل ما ينعاها ناصف على جمهور النقاد المحدثين هو اتهامهم ضمناً بالقصور النقدي أمام هذه النصوص، وعدم الاجتهاد في طرقها وتحليلها، إنما الاكتفاء بما تعود عليه الأسلاف من قبل.

¹ نعمة رحيم العزاوي: فصول في اللغة والنقد، المكتبة العصرية بغداد، ط1، 2004، ص: 221.

تتألف نظرة مصطفى ناصف للشعر الجاهلي من مزيج متجانس حيناً و متباين حيناً آخر من القراءات النقدية التي صاغت الفكر النقدي العربي الحديث ، و عملت على ضخ منظومة فكرية كبيرة ، عملت على إيضاح رؤيته للشعر الجاهلي منذ مرحلة البدايات الأولى للكتابة النقدية عنده ، ذلك أن قراءته استمت بشيء غير يسير من العمق في التحليل ، و ارتياد مناطق قصية في القصيدة العربية القديمة ، لم تحظ بالعناية من قبل في الدراسات النقدية ، سواء القديمة أم الحديثة ، فالشعر الجاهلي لم يكن يمثل لناصر لحظات عابرة مرت على خريطة الشعر العربي ، إنما هو " حقبة مهمة في حياة الشعر العربي ، و معنى ذلك أن الشعر العربي نشأ من الشعر الجاهلي ، ثم نمت الشجرة و ترعرعت و لكن جذورها ظلت ثابتة في ذلك الشعر " ¹ . و يضيف قائلاً : " إن أوائل الشعر العربي شكّلت أواخره ، و أن الجذور هي التي أنبتت الفروع العالية في السماء ، و أن الشعر العربي مدين بجوهره للشعر الجاهلي " ² .

و في ربطه الشعر العربي بجذوره الجاهلية يكتب ناصف حول مرحلة الطفولة قائلاً : " الطفولة تكون عادة ضئيلة التجارب ، قليلة الخبرة ، لا عهد لها بالتأمل في الحياة و لا التفلسف ، و لا تعرف البحث عن حقائق الحياة المجردة ، و لا تكاد تتجاوز الأشياء القريبة ، و لكن الشعر الجاهلي ليس طفلاً بهذا المعنى " ³ . و من الدوافع الرئيسية التي جعلت ناصف يرتاد هذا النوع من القراءة هو ملاحظته ذلك التشابه الكبير بين مختلف القراءات ، سواء كانت قديمة أم حديثة ، دون أن تكون عميقة في منحها النقدي ، الشيء الذي حدا به إلى محاولة التجاوز المعرفي لما هو كائن ، و تطلعه لما يجب أن يكون ، لأن القراءة في تعريفاتها المتداولة عنده هي " فنّ كسر الحواجز ، التي تفصل بيننا و بين قصيدة من القصائد " ⁴ .

و الحق ، أن ناصف تأثر في اختيار منهجه و قراءته بأستاذه طه حسين من قبل ، لكن توظيف هذه الآلية يختلف بين الرجلين ، فإذا كان شكّ طه حسين منصباً حول ماهية ؛ أي وجود الشعر في حدّ ذاته ، فإن شك ناصف انصب حول الكيفية التي قرئ بها هذا التراث الشعري ، يقول طه حسين في معرض حديثه عن ماهية الشعر الجاهلي : "... إنّي شككت في قيمة الشعر الجاهلي و ألححت في الشك ... ذلك أن الكثرة المطلقة مما نسميه شعراً جاهلياً ليست من الجاهلية في شيء ، و إنما هي منتحلة مختلقة بعد ظهور الإسلام ... و أكاد لا أشك في أنّ ما بقي من الشعر الجاهلي الصحيح قليل جداً لا يمثل شيئاً و لا يدلّ على شيء " ⁵ .

تنهض قراءة مصطفى ناصف للتراث الشعري الجاهلي من فرضية مفادها أن جلّ النصوص الشعرية الجاهلية تعتمد في تشكيلها على الرمز و الأسطورة في عملية التصوير الفني و الجمالي ، و أنه يجب على الناقد الحصيف أن يتسلح برؤية خاصة تمكنه من اكتناه هذه الرموز و فكّ طلاسمها و شفراتها ، قصد الوصول بها إلى

¹ مصطفى ناصف : قراءة ثانية لشعرنا القديم ، دار الأندلس ، بيروت ، ط 2 ، 1981 ، ص : 41 .

² نفسه ، ص : 42 .

³ نفسه ، ص : 42 .

⁴ نفسه ، ص : 06 .

⁵ طه حسين : في الشعر الجاهلي ، دار المعارف للطباعة و النشر ، تونس ، د . ط . ، 1997 ، ص : 17 .

مساحات رحبة من الدلالات والمعاني ، و لبلوغ هذه الغايات يحتكم الناقد إلى توظيف آليتي التفسير والتأويل اللتين تمكّنان حسبه من تقليب النص الشعري على أكثر من وجه ، والخروج من العملية القرائية بطائل ذي بال ، والتأويل عند ناصف " فنّ صعب المراس ، يستنطق فيه النص من أجل خدمة اتجاهات لها أهمية في سير الحياة والفكر ، التأويل رؤية للنص من باطنه ، وهو يتميز من تناول الخارجي الذي يهتم بالعلاقة بين النص والبيئة ، أو النص والمؤثرات ، إذا اهتم الباحث بالمؤثرات ضاع النص" ¹.

يستثمر ناصف المرتكزات النفسية التي أتى بها منهج التحليل النفسي و يقرّ بشرعية طروحاتها في الحقل المعرفي النقدي العربي ، إلا أنه لم يرجع تفسيراتها وتأويلاته للنصوص على أساس اللاشعور الفردي للظاهرة ، ونفى ما دعا إليه التحليل النفسي من إرجاع كلّ الظواهر الإبداعية إلى عقد جنسية ترجع إلى مراحل الطفولة البدائية أو الأولى ، إنما تناول طروحات التحليل النفسي من منطلق أن العمل الأدبي في استقلالية تامة عن صاحبه ؛ لأنه " يتحرك حركة ذاتية خاصة به ، لا حركة تابعة لذات صاحبه" ².

يضيف ناصف إلى هذا ، أن العمل الأدبي ليس وثيقة لإثبات هوية صاحبه ، وأنه بمعزل عنها ، وربما قد يخالف النص شخصية مبدعه ، " إذا كان العمل الفني جميلا ، فليس معنى ذلك أن وراءه نفسا جميلة ، فإن تاريخ حياة العظماء كثيرا ما يظهرهم صغارا من الناحية الخلقية في خارج مؤلفاتهم الممتازة التي تتسم وحدها بالعظمة" ³.

إنّ ما يريد ناصف إثباته هو أن العمل الأدبي كيان قائم بذاته ، مستقل استقلالاً تاماً عن صاحبه ، ونحن في قراءتنا لهذه النصوص إنما نعزلها عن كل ما يحيط بها من سياقات قد تتدخل أثناء عملية القراءة ، ومن جملة هذه السياقات الحالة النفسية للمبدع وقت إنتاجه لنصه ، غير أن ما فات ناصف التنبيه له هو ذلك الجانب الإيديولوجي أو العقدي الذي يحمله النص من خلال اللغة . وقضية الاحتكام إلى النص وحده قضية أثارها المدّ البنيوي في مجال النقد ، وما مهّد فيما بعد لظهور مقولة "موت المؤلف" وتقاطعها مع فكرة " النسق المغلق" أثناء عملية القراءة ، غير أن الذي نحن بصدد إبرازه في الخطاب النقدي عند مصطفى ناصف هو محاولته الاحتكام إلى النصوص و معاينتها معاينة رمزية أسطورية ، باعتبار النص عالم مكتف بذاته ، وأنه حمّال أوجه ، وأنه لا يجب " على الناقد البحث عن دلالات للعمل الأدبي خارج إطاره اللغوي ، إنّ مهمة الناقد هي تحليل النص بتشكيلاته اللغوية و بيان عناصرها ودلالاتها الجمالية ، و إلى جانب التحليل يجب عليه مقارنة النص بنصوص أخرى تنتمي لنفس النوع الأدبي بهدف الكشف عن دور هذا النص في دائرة التقاليد الأدبية . ماذا أخذ منها وماذا أضاف إليها" ⁴.

(3) منهج مصطفى ناصف في قراءة النص الشعري الجاهلي :

¹ مصطفى ناصف : محاورات مع النثر العربي ، عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، فبراير 1997 ، ص : 07.

² مصطفى ناصف : دراسة الأدب العربي ، دار الأندلس ، بيروت ، ط3 ، 1983 ، ص : 145.

³ نفسه ، ص : 144.

⁴ نصر حامد أبو زيد : إشكاليات القراءة وآليات التأويل ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، الدار البيضاء ، ط08 ، 2008 ، ص : 19.

إن المنهج النقدي الذي ارتضاه مصطفى ناصف لقراءته النص الشعري هو التوظيف الرمزي والأسطوري للصورة ، وأنه اتبع في جملة مدوناته النقدية العديدة معضلة المعنى و إشكالياته ، سواء في البحث عنه في النصوص الشعرية أو في المصنفات البلاغية القديمة ، أو حتى في استثماره الوافد من النقد الغربي ، فقد شغلت قضية المعنى الجزء الرئيس في جميع متون الرجل النقدية .

تسعى هذه المحاضرة لتكشف آليات المقاربة النقدية عند ناصف ، ولماذا ركز على الشعر الجاهلي دون سواه ؟ و ماهي آليات القراءة المعتمدة ؟ و هل تنسحب النتائج المتحصل عليها على باقي الشعر العربي الجاهلي ؟ أم أن لكل قصيدة خصوصياتها ؟ .

ينطلق مصطفى ناصف في قراءة الشعر العربي القديم من إرجاعه إلى مظاهر الأسطورية التي ترجع إلى اللاشعور الجمعي ، كما بلوره "كارل يونغ" ، و أن الكثير من الظواهر المعتمدة في متون القصائد الجاهلية إنما ترجع في حقيقتها إلى رموز أسطورية موهلة في القدم ، يتم استحضارها بين حين و آخر من قبل الشعراء ، ويؤكد ناصف أن الشعر العربي قبل الإسلام لا يعول في شرحه على الظروف الخاصة لشاعر من الشعراء ، إنما نحن بإزاء ضرب من الطقوس أو الشعائر التي يؤديها المجتمع أو تصدر عن عقل جماعي لا عن عقل فردي أو حالة ذاتية ، و الحق أن الشعر الجاهلي - كله - يوشك أن يكون على هذا النحو ، بمعنى أن مراميه فوق ذوات الشعراء" ¹ .

لا يكاد ناصف يتجاوز هذه الإشكالية حتى يوضح إشكالية أخرى ، و هي قضية التزام الشاعر الجاهلي بقضايا جماعته ، و ليس بقضايا الفردية ، " ... فالشاعر من حيث هو فنان يوشك أن يكون ملتزما ، و يأتيه هذا الالتزام من ارتباط غامض بحاجات المجتمع العليا ، و كل نابغة في العصر القديم يشعر أن المجتمع يوجه أفكاره إلى حيث يريد" ² . لا يقرأ ناصف الشعر الجاهلي كظاهرة فردية تعاورت في إيجادها قوى شعرية ما ، إنما مرجعها الأساس اللاشعور الجمعي ، و هو في هذه القراءة يستعين بمفهوم اللاشعور الجمعي ، و هو " ذلك الجزء من النفس الذي يدين في وجوده لعامل الوراثة النفسية و ينشأ أساسا من الأنماط العليا Archetypes ، وهي أشكال محددة في النفس موجودة وجودا قريبا ، و كل شكل منها يحمل جزءا صغيرا من نفسية الإنسان ، قدره ، بقية أفراده و أحزانه ، تتكرر فينا كما وقعت في حياة أسلافنا ، و حين يقع الموقف النمطي الأعلى ينتاب الفرد شعور بأنه في قبضة قوة خارقة ، و في هذه اللحظة لم يعد فردا ، بل أصبح الجنس البشري كله ، لأن صوت كل البشر يتردد فيه" ³ .

تقوم تفسيرات مصطفى ناصف و تأويلاته للتراث الشعري ، انطلاقا من كونه جملة من الرموز الأسطورية التي تعبر بصدق عن هموم المجتمع الجاهلي برمته ، فأتناء معابنته لظاهرة الطلل في الشعر الجاهلي

¹ مصطفى ناصف : قراءة ثانية لشعرنا القديم ، ص : 53 .

² نفسه ، ص : 53 .

³ عبد الفتاح محمد أحمد : المنهج الأسطوري في تفسير الشعر الجاهلي ، دار المناهل ، بيروت ، ط1 ، 1987 ، ص : 126 .

جامعة قاصري مبراح - ورقة - (المكتبي الوظيفي (اللاوث) في: (اللاوثاهاك) (الحرية في دراسة اللغة واللاوث) يوم 26-27 أكتوبر 2011

يذهب في تأويلها تأويلات بعيدة ، حتى أنه يربطها برمز البعث والحياة ، و أن الشاعر الجاهلي ملتزم بهذه التقاليد التي توطن علاقة المجتمع به ، فالطلل حسبه هو " الماضي الذي ذهب و لن يعود ، هو قطعة من الحياة التي تهرم كلما مضى منها جزء ، الطلل المرثي رمز للماضي الذي يستطاع رده" ¹. و عند بكاء الشاعر الطلل ، فإنه " يبكي ما ضاع من الحياة أو العمر" ².

يدلل ناصف لقراءته بأن بكاء الشاعر على الطلل " يشبه صلاة جماعية على الماضي الميت و إذا تأملت تفصيلات الطلل الرمزي الذي يهز إحساس الشاعر بفعل الموت المستمر في حياته وجدت كل شيء يعين على هذا الفرض" ³.

إن ما يحاول الناقد إثباته من خلال هذه النصوص التي تقف شاهدا على القراءة الرمزية للطلل ، هو أنه لازمة كل نص شعري مؤثر ، و هو عادة مقدسة ترتفع بالقصيدة إلى رتبة سامقة في سماء الأسطورة المقدسة ، و الأمر الآخر أن الطلل هو الرمز الأول للحياة في القصيدة الجاهلية على اعتبار أن الرمز الثاني هو الناقة في كل القصائد الجاهلية ، " إن هذا الفهم المستند إلى وجودية هيدجر يفضي إلى أن الشاعر الجاهلي يستشعر أن وجوده هو وجود نحو الموت ، و لأن الشاعر الجاهلي متمسك بالحياة فإنه يصر على بعثها في هذا الميت (أعني الطلل) ، و هنا تتحول مفردات الطلل و لغته إلى تعويذة سحرية تعيد الحياة إلى الطلل" ⁴.

يستند ناصف في قراءته لإشكالية الطلل على موروث نقدي و بلاغي عريق ، أسهم فيه تضلع الرجل في هذه العلوم اللغوية و البلاغية ، ليصل إلى أن مفهوم " البكاء على الطلل ليس حزنا سلبيا عاجزا ، و ليس هزيمة أمام الموت ؛ لأن الحياة - من وجهة نظره - تظل مستمرة ، و وظيفة عقل الشاعر في هذه الحال وظيفة إيجابية ، فهي دعوة غامضة إلى تغيير النظر إلى الماضي أو دعوة إلى مبدأ استمرار الحياة من حيث هي نشاط و فاعلية" ⁵.

ترتبط رمزية الطلل بقضية أخرى لا تقل أهمية عنها ، و هي قضية الوشم و الكتابة في النصوص الشعرية الجاهلية ، و ارتباط الوشم بالطلل قديم قدم النصوص ، لكن رمزية هذه الصورة هي ما أثاره الناقد من تأويل لها ، باعتبار الأطلال " أشبهت الوشم و الكتابة ، و الكتابة هي ذاكرة الإنسان و ماضيه ، فهي مجددة لا تزول و كذلك الماضي لا يزول ، الماضي ذو طابع متناقض يقف الإنسان أمامه عاجزا ، و بعبارة أخرى يبدو معاكسا لشعوره لحياته من حيث هو فرد ، و لكنه من جهة أخرى ذو طابع خلاق ... و من ثمّ بدا الفناء السطحي أو

¹ مصطفى ناصف : دراسة الأدب العربي ، ص : 236.

² نفسه ، ص : 237.

³ نفسه ، ص : 239.

⁴ عاطف أحمد الدرابسة : قراءة النص الشعري الجاهلي في ضوء نظرية التأويل ، عالم الكتب الحديث ، الأردن ، ط1 ، 2006 ، ص : 177.

⁵ مصطفى ناصف : قراءة ثانية لشعرنا القديم ، ص : 59-60.

الفردى جانبا جوهريا من عملية تطور إبداعي ، و لا شيء أدلّ على هذا الإبداع من فكرة الكتابة و الوشم ، فكلاهما تعبير عن حفظ الحياة و إحالة أحداثها المتغيرة على الدوام إلى رموز باقية" ¹ .

إن المعضلة الأساسية التي وقف الشاعر الجاهلي إزاءها هي معضلة الزمن ، و ما ينطوي عليه من تجريد لفكرة الفناء و الاندثار ، متمثلة في الطلل و الوشم و الكتابة ، يكتب الدرابة معلقا حول عملية الفهم لهذه الإشكالية قائلا : " فهم مصطفى ناصف الرمز الكامن في الوشم و الكتابة ، فالشاعر الجاهلي وفق مبدأ الديمومة يكامل بين الماضي و المستقبل ليعث الحياة في الأشياء و الكائنات الميتة و من هنا يصبح الزمان عامل دفع حيوي لا عامل تصدّع و انهدام" ² .

لقد جعل الشاعر الجاهلي لنفسه معادلات موضوعية - بتعبير إليوت - يجتبي بها من هذه النوايب و النوازل ، و لعل صورة الناقة هي من مثلت هذه الرمزية بامتياز ، إذ لا تقترب صورة الناقة بهذه الرمزية فحسب ، بل تعداها لصورتها الأمانة التي ترتقي إلى حدّ التقديس ، كما ذهب ناصف ، و هي " رمز لعدّة مفهومات ، لفناء القوي الشاب ، و الانتصار على الصعوبات ، و الحياة الفاضلة ، و المثل الذي تهون في سبيله التضحية و الفداء ، و لكن أقصى ما يقنع به العقل المشغوف بملاحظة الأسباب أن الناقة صديق رفيق ، وليست مجرد أداة للرحلة و الاتصال ... هذا طرفة يرى في الناقة الموت الذي يقترن ببلوغ الحياة أقصى نضوجها" ³ .

تحتكم تفسيرات ناصف لمختلف النصوص الشعرية الجاهلية إلى مبدأ البحث عن المغيّب في النص ، و النبش عن مختلف المعاني المختلفة ، و المتدثرة بنوع من الغموض و الإلغاز ، بغية السير قدما بالعملية النقدية و التأويلية خصوصا إلى مناطق قصية من البحث ، و لا ترتبط صورة الناقة بهذه القدسية فحسب ، فهي كذلك رمز للتعبير عن قوى الشر ، كما نجد ذلك في قراءته لرمز الناقة في أبيات زهير ، يعلّق ناصف قائلا : " أصبحت الناقة حيوانا أسطوريا يلجأ إليه الشعراء في التعبير عن قوى الشر المسلطة على الإنسان أو قوى الموت" ⁴ .

إن هذه المكانة التي تتمتع بها الناقة في الشعر الجاهلي على مستوى التجريد و على مستوى الواقع المعيش هي مكانة مرموقة و هامة في الوقت نفسه ، و شكلت مادة ثرية على مستوى التداول بين الشعراء ، و الصورة الأساسية التي تبوأتها الناقة - على الرغم من اختلاف الصورة - هي رمزيتها على القوة و المنعة ، و لأنها شكلت نسبة كبيرة من الموضوعات الشعرية المطروقة خاصة في ما صورها به طرفة في معلقته ، فالناقة في هذه القصيدة تبدو " بفضل ما أتيح لها كالملاجأ الأمين الذي يقى صاحبه من كثير ، لأن هناك صورا تعبر عن الوقاية و الاحتماء مثل الباب المنيف الممرّد و بيوت الوحش في أصول الشجر و قنطرة الرومي ، و جناحي النسر ، و السقف المسند ، و الظهر العالي ... كل هذه الصور متألفة ، و قد توحى بأن طرفة يعاني من الخوف و

¹ نفسه ، ص : 60 .

² عاطف أحمد الدرابة : قراءة النص الشعري الجاهلي ، ص : 179 .

³ نفسه ، ص : 202 .

⁴ مصطفى ناصف : دراسة الأدب العربي ، ص : 251 .

أن الخوف ينتهي إلى طلب الاحتماء والاختباء ، وهذه القوى الكثيرة المجتمعة في الناقاة تعني أن منطق الشاعر هو أنه لا ملجأ من الناقاة إلا إليها" ¹.

تتوالى التأويلات النقدية من قبل الناقد مصطفى ناصف ليتناول جملة من القضايا الأساسية التي شكلت الإطار العام لنمو القصيدة الجاهلية ، فبعد أن يرفد نظريته التأويلية بهذه الرموز الأسطورية التي ترجع في أصلها إلى أساطير بدائية قام الشاعر الجاهلي باستثمارها وتحويلها ، و من ثمّ توظيفها جماليا في شكل إبداعات خالدة لما انطوت عليه من جماليات رسّخت نظرة الإنسان الجاهلي إلى الحياة ، والموت ، إلى الأرض و إلى السماء ، إلى الوجود و إلى الأزل.

يتناول الناقد رمزا آخر من رموز الشعر الجاهلي لا يقل أهمية من حيث التوظيف والتداول عن باقي الرموز الأخرى ، ففي قراءته لرمزية العنب الذي توالى وصفه من قبل الشعراء في سياقات معينة و أوقات مختلفة ، و ما ينطوي عليه من دلالات خاصة بالمجالس الخمرية التي كانت تعقد في الجاهلية بين الشاعر و نفر من الندامى ، ففي هذه الصورة رمزية معقدة حسب الناقد ، إذ يريد "شارب الخمر أن يحقق أحلاما أو أفكارا أو رؤى لا يستطيع أن يتناولها بغير هذا الطريق ، أي أن الخمر في نظر شاربيها تعتبر وسيلة إلى ضرب من المعرفة التلقائية الغامضة لحقائق صعبة ، حقائق الحياة والوجود" ².

تعتبر الخمر بديلا هاما عن حالة الاضطراب الأنطولوجي التي يعانيتها الإنسان الجاهلي ، و من خلالها يقوم الفرد بما يشبه التعويض النفسي عن حالة الحرمان المعيشة ، و في تأويل آخر لبيت من الشعر يقول صاحبه :

وقد لاح في الصبح الثريا لمن رأى كعنقود ملاحية حين نورًا

يتجه ناصف رأسا إلى استثمار الأسطورة باعتبارها المعين الأول لفهم كل هذه الرموز و الصور ، فيقول : "الأساطير الجاهلية تحدثنا أن العنب رمز لحلاوة الدنيا ، فاختيار الملاحية أو العنب يؤدي أكثر من معنى فحلاوة الدنيا إذن مقصورة على الأرض ، بل تتعداها إلى الثريا في السماء ، من أجل ذلك يبدو الحسي الجامد ذا حظ من الحياة و النشاط ، أضف إلى ذلك أن العنقود يرمز إلى الخصب و النمو و التوالد ، و الثريا إذن في هيئتها و تقاربها و صوتها قريبة في النفس من منظر الطفولة و الأطفال" ³ ، ثم يستدرك ناصف عمن يتصور اعتراضه من القراء بقوله : " و في وسعك أن تقول إن الشاعر لم يقصد إلى هذا التكلف ، و في وسعي أن أقول إن المقصد يشبه العنقاء كلاهما خرافة" ⁴.

إنّ هذه الرمزية الأسطورية التي طبعت القراءة النقدية عند ناصف ، خاصة في مؤلفيه "قراءة ثانية لشعرنا القديم" و "دراسة الأدب العربي" ، لم يحتف بها ناصف في مؤلف آخر وضعه هو الآخر لدراسة الشعر

¹ عبد الفتاح محمد أحمد : المنهج الأسطوري في تفسير الشعر الجاهلي ، ص : 133 - 134.

² مصطفى ناصف : دراسة الأدب العربي ، ص : 291.

³ نفسه ، ص : 208.

⁴ نفسه ، ص : 209.

جامعة قاصري مبراح - ورقلة - (الملتقى الوطني للدراسات والبحوث في دراسة اللغة والأدب يوم 26-27 أكتوبر 2011)

العربي القديم ، و هو "صوت الشاعر القديم" ، ففي مقدمة الكتاب يضع ناصف قارئه أمامه و يستحضره بقوله : " لقد قدمت تجربة سابقة في القراءة و أنا الآن أقدم تجربة مختلفة" ¹. مما يبين أن الشغل الشاغل للرجل هو إعادة قراءة الشعر العربي القديم قراءات عديدة ، و أن هذه القراءة ستكون مغايرة من حيث المنهج والطرح النظري والتطبيقي عما سبقها من دراسات ، الشيء الذي يعمق الفكرة أكثر هو اشتغال الناقد حول ما عرف في أجياديات النقد المعاصر بمنهج "الكلمات المفاتيح" Mots Clefs ، يقول في ذلك : " إن الإقبال على طائفة من النصوص أكثر من مرة مشقة لا تخلو من المتعة ، فالنصوص تتحدانا ، و تظل تعلق بعقولنا ، و كل طائفة من الأدوات تفتح معالم لا تستطيعها سواها ، و لكن الأدوات لا تنبع من الخارج ، و إنما تكشف من داخل النصوص ، فالنصوص خالقة أدواتها ، و حينما عاودت التأمل في الشعر القديم في أزمان متباعدة خيل إلي أحيانا أن مشكلة هذا الشعر تتعلق ببعض الوجوه باستعمال طائفة من الكلمات الأساسية التي يسمونها أحيانا كثيرة باسم الكلمات المفاتيح" ².

كانت كفيات التناول قائمة حول الوصول إلى المعاني و الدلالات انطلاقا من الكلمات المفاتيح التي تتشكل بها رمزية اللغة ، و تنأى الدلالة عن أن تكون ظاهرة ، و تمت معالجة الكثير من القضايا ، لعل من أهمها "بنية القصيدة العربية" و " البحث عن وحدة الشعر " كذلك ، و المؤلف في مجمله عبارة عن تساؤلات معرفية تحمل أبعادا أنطولوجية و جمالية يتم الإجابة عنها انطلاقا من هذه الرمزية السامية للغة من جهة ، وللجانب الوجودي للإنسان من جهة أخرى ، من أمثلتها : لماذا أعجب الشاعر القديم بوكنات الطير ؟ أليست الوكنات مرتبطة بالظلمات ؟ ³ ، و منها أيضا : لماذا لم يتمتع الشاعر القديم بتأمل حرية الحيوان ؟ إنه على العكس يتمتع على الدوام بالتعرض لهذه الحرية ⁴.

لا يكاد ناصف يجيد عن معالجة القضايا الأساسية في كتابه هذا ، لأنها تشكل استمرارية و صيرورة وجودية تناولها الناقد سابقا ، لكن معالجته الحالية مختلفة بعض الشيء ، خاصة في عدم إرجاعه هذا الشعر إلى أصول أسطورية ، فالصحراء (الفلاة) مثلا في أبيات الأعشى في قوله :

وفلاة كأنها ظهر ترس ليس إلا الرجيع فيها علق

"ليست أقلّ من مواجهة أعماق الوجود ، أو أعماق الذات التي لا تنكشف أمام الشاعر فيما تسميه باسم تجربة المحبة ، أعماق الذات موكولة إلى الفلاة ، و قد يرى الشاعر ذاته مجدبة مقفرة لا تجد ما يداوي سأمها ، و حينئذ يلجأ إلى الفلاة ... لأنه شديد الحاجة إلى الشعور بعالم ظاهره القسوة و الاستغناء والاستعلاء على العاطفة المتغيرة" ⁵.

¹ مصطفى ناصف : صوت الشاعر القديم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 1992 ، ص : 05.

² نفسه ، ص : 06.

³ ينظر : نفسه ، ص : 09.

⁴ نفسه ، ص : 10.

⁵ نفسه ، ص : 33.

جامعة قاصري مبراح - ورقة - (الملتقى الوطني للدراسات والبحوث في دراسة اللغة والأدب يوم 26-27 أكتوبر 2011)

رغم ذلك تبقى قراءة مصطفى ناصف للتراث الشعري الجاهلي من أرقى القراءات وأكفئها ، واولاها بالعناية و التمحيص و توظيف مقولات نقد النقد للوصول ربما إلى نتائج تكون قميئة بهذا الإنجاز المعرفي والنقدي ، ولا شك أن الرجل قد أفاد من جملة المناهج النقدية الحديثة وبخاصة مقولات المنهج الأسطوري في قراءة النص الشعري الجاهلي و أنه استثمرها بما يخدم الغرض العام للبحث ، و أن استثماره جاء مغايرا للعديد من الباحثين و النقاد الذين اكتفوا بمماثلة الآخر ، و لا يكادون يتجاوزونه ، إن على المستوى النظري أو حتى الممارسي .

إن ماأضاه ناصف لقراءة التراث الشعري تجاوز به الكثير من التطبيقات العربية الحديثة التي تعسفت في الإمتياح من المستودع الغربي لاستنطاق المدونات القديمة ، و حملت النص أكثر مما يحتمل كما هو الحال مع دراسات أسطورية حديثة ، حاولت استثمار آليات المنهج الأسطوري في قراءة الشعر الجاهلي ، فوقع في مطب المماثلة والمقايسة والخلط المنهجي مما أدى إلى تهافت النتائج التي توصلت إليها في الكثير من الأحيان . ❖